وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة

بقلم؛ سيف الدين الأنصاري

من أهم ما تتميز به الأحكام الشرعية أنها تتسم بالانسجام الكامل بين مفرداتها، فلا يمكن أن تجد حكما شرعيا يعارض حكما شرعيا آخر، أو يسير في الاتجاه المضاد لما يقرره، خاصة إذا تم الالتزام الدقيق بالضوابط العلمية في استفادة الحكم من الدليل. بل إن هناك إجماعا على أن الأحكام الشرعية تشكل فيما بينها منظومة متكاملة ومتناسقة، تُؤسس عند المسلم رؤية واضحة، وترسم له خطاً بارز المعالم يقوده إلى الأهداف وفق نظام سنني، يظهر فيه - بجلاء - الترابط الوطيد بين النتائج المرغوبة والمقدمات المطلوبة.

في هذا الإطار يأتي الأمر بإعداد القوة كواجب شرعي يتوافق تمام التوافق مع وجوب التمكين للدين، بل ويشكل المقدمات المناسبة لتحققه، فالتمكين للدين - بما يعنيه من علو لأحكام الشريعة واستتباب الأمر للجماعة المسلمة - يعَد هدفا ثقيلا، لا يمكن لحركة التغيير الإسلامي أن تصل إليه من غير أن تكون مالكة للقوة التي تمكنها من ذلك، ومن هنا جاء الأمر الصريح باستفراغ الجهد في عملية إعداد القوة، وبذل كل المستطاع في هذا الاتجاه دون كلل أو ملل، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال:60].

وتجدر الإشارة - قبل الدخول في الموضوع - إلى أن امتلاك القوة شيء، واستعمالها شيء آخر، فهما أمران منفصلان، ومن المهم جدا التفريق بينهما، لأن الخلط يؤدي إلى حالة من الارتباك في التعامل مع الموضوع، إما بالإفراط أو بالتفريط، فقد يفهم البعض من امتلاك القوة ضرورة استعمالها بلا توقف أو ربما بلا حدود، مما قد يؤدي إلى نتائج عكسية يصعب معها الوصول إلى الأهداف المرسومة. كما أن بعضاً آخر قد تدفعه حساسيته اتجاه الجهاد - كصورة لاستعمال القوة - إلى رفض امتلاك القوة أصلا، وهو ما يؤدي حتماً إلى ترسيخ حالة الضعف عند المسلمين، وبالتالي تكريس الوضع القائم واستحالة تغييره رغم كل الجهود المبذولة في هذا الاتجاه.

المهم، ما نقصده هنا هو إبراز دور امتلاك القوة، من خلال الارتكاز إلى الدلالات التي تحملها نصوص الوحي، لأنها نبراس المسلم في حركة الحياة. على أننا سوف نختصر تجليات الدور الذي تؤديه القوة في ثلاثة وظائف أساسية، دون أن يعني ذلك نوعا من الحصر أو الإقصاء لغيرها من الوظائف.

أولاً؛ تحقيق مبدأ الردع:

يشير النص القرآني إلى أن الغرض الأول من امتلاك القوة هو إلقاء الرهبة في قلوب الأعداء، {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال: 60]، فامتلاك القوة يجعل الجماعة المسلمة مهيبة في عيون العدو، ومن ثم يَنظر إليها على أنها ذاتُ وزن في عالم الواقع. مما يدفعه إلى تقديرها واحترام إرادتها، أو على الأقل يكبح فيه جماح الاعتداء عليها، لأنه يعلم أنها تملك قوة الدفاع عن النفس، وأنها قادرة على الرد. وبهذا يصبح امتلاك القوة أداة لحماية الجماعة من محاولات الأعداء الهادفة إلى اقتلاعها من الواقع، وهذا ما يعرف اليوم بـ "القوة الرادعة".

وتنطلق الجماعة المسلمة في حرصها على امتلاك القوة الرادعة من إيمانها العميق بحقيقة النوايا المبيتة عند العدو، وأنها نوايا شريرة تهدف إلى القضاء على الوجود الفعلي للجماعة المسلمة، إما عن طريق عمليات التصفية والإبادة، وهو ما يبدو جليا في مساعي التحالف الدولي للقضاء على الإسلام (يسمونه الإرهاب)، قال تعالى: {إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً} [التوبة:8]. وإما عن طريق تدجينها وإفراغها من هويتها الحقيقية بواسطة أساليب الضغط التي يمارسها القوي على الضعيف، ليبقى وجودها - في الأخير - وجودا صوريا، وليصبح إسلامها نسخة معدلة جينيا في مختبرات البيت الأبيض وأوكار وزارات الداخلية، قال تعالى: {إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ} [الممتحنة:2]، وهي إشارة واضحة إلى أن الغرض من بسط اليد واللسان بالسوء (الضغط) هو التنازل عن المبادئ، والانحراف بالجماعة عن خط الإسلام الأصيل إلى إسلام وظيفي لا يهدد الأنظمة الطاغوتية.

وفي كلتا الحالتين لابد من القوة التي تحمي الوجود الفعلي للجماعة المسلمة، فمبدأ "القوة الرادعة" قاعدة

أساسية في العلاقات بين كل القوى التي تريد الحفاظ على كيانها، بل هو الموجه الحقيقي الذي يحكم هذه العلاقات، ولذلك تتسابق الدول والجماعات إلى امتلاك كل ما تستطيع من عناصر القوة، وإلى تطويرها لتتلاءم مع متطلبات العصر، لأن هذا هو الذي يتيح لها فرض إرادتها من خلال الهيبة التي تتمتع بها في الواقع. بل يرى الخبراء "أن القوة وحدها هي التي تضمن بقاء الدولة، وأنه بمقدار ما لدى الدولة من قوة يتحدد وضعها في العلاقات الدولية، وعلى هذا الأساس انقسم العالم إلى دول صغرى ودول كبرى، وسيطرت الدول الكبرى على العلاقات الدولية"[1].

ولا داعي إلى استدعاء أهمية السلام ومحاولة الاعتراض بها على السير في هذا الاتجاه، لأن النوايا المبيتة عند العدو والتي أخبرنا بها الوحي {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ}، ويشهد بها الواقع في تجلياته اليومية تجعل من هذه المحاولة نوعا من "التخريف الفكري"، وتضعها في دائرة الاتهام بالعمل على تزييف الوعي الإسلامي، لأنه قد ظهر - بجلاء - أن العدو إنما يريد من خلال حديثه عن السلام إشاعة حالة الاسترخاء بين المسلمين، وبث الوهن في إرادتهم، ليتمكن هو من بسط نفوذه وإحكام سيطرته بأقل الخسائر الممكنة، أو ربما بدون خسائر أصلا، في حين "أن العلاقات الدولية في المفهوم الوضعي تقوم على القوة وفرض السيطرة رغم ما يدعي أصحابها من دعاوى السلام"[2].

كما أنه لا داعي إلى استدعاء ما يعرف ب"قوة الحق في مقابل حق القوة"، فإننا في عالم الواقع ولسنا في عالم الأماني، وعالم الواقع يقول لنا إن قوة الحق إذا لم يصاحبها حق القوة تبقى عبارة عن أفكار نظرية لا يمكن أن تجد لها مكانا على أرض الواقع، أو في أحسن أحوالها تتطور إلى حالة صوتية لا تستطيع الحد من استعلاء الباطل المدجج بالقوة، ولا أن تردعه عن الاعتداء.

أضف إلى هذا أن الحق المجرد من القوة لا يملك فرصة التأثير الكامل على النفوس، لأن الباطل يستغل القوة في إضفاء الشرعية على نفسه، من خلال صناعة الأفكار التي تخدم اتجاهاته، وعن طريق الضغط على المؤسسات التشريعية التي تسن له من القوانين ما يوافق

---

[1] العلاقات الدولية العربية [ص: 29]، د محمد غانم

[2] العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية [ص: 57]، سعيد عبد الله حارب المهيري.

رغباته، في عملية "مفبركة" تجعل من فرعون داعية الهدى {وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: 29]، وتضع موسى في دائرة الاتهام {أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر: 26]، وهي العملية نفسها التي تكرسَ اليوم وضع الولايات المتحدة كدولة لها الحق في التدخل في شؤون الآخرين، ولها الحق في أن تستثنى من المحاسبة.. بل لها الحق في كل شيء، لأنها - بما تملكه من أدوات الضغط - لا تجد صعوبة كبيرة في إضفاء الشرعية على الموقف. ولعل في القولة الأسيفة للوط عليه السلام {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّة} [هود: 80] ما يعظنا بأنه لا غنى لقوة الحق عن حق القوة.

ثانياً؛ تحقيق القدرة على الجهاد:

الأمة الإسلامية أمة مجاهدة، ولجهادها دوافع وأهداف تجعله قائما إلى يوم القيامة، إلاّ أن إيماننا بهذه الحقيقة لا يعني أيّ نوع من أنواع التواكل أو الاسترخاء، فقد أشرنا مرات عديدة إلى أن الانتقال إلى دائرة العمل متوقف على امتلاك الإرادة القوية والقدرة الكافية، وأنه بغير هذين المقومين معا لا يمكن أن يتحقق العمل. والجهاد شأنه شأن باقي الأعمال، يحتاج إلى إرادة قوية وإلى قدرة كافية. ومع أننا نركز على أهمية الإرادة إلاّ أننا لا نهمل دور القدرة في الانتقال إلى دارة الفعل.

وإذا كانت المعرفة بحكم الجهاد وفضله وآثاره، والحياةُ في أجوائه وبين رجاله كافيةً لإنشاء قوة الدافع – الإرادة - نحوه، كما هو معروف وملاحظ عند شريحة واسعة من المسلمين، فإن الذي يجب أن لا نغفل عنه هو أن الإرادة وحدها لا تكفي لتحقيق الجهاد على أرض الواقع، إذ لابد معها من وجود القدرة الكافية، لأنها هي التي تدخِل العمل في دائرة الاستطاعة، ولهذا جاء الأمر الصريح بإعداد القوة، باعتباره واجبا شرعيا من شأنه أن يشكل المقدمات المناسبة لتحقق الجهاد، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة}، لأن هذه القوة التي نحصلها عن طريق الإعداد هي التي تشكل مقومات القدرة على الجهاد، وبدون هذه المقومات يبقى "الإيمان" بالجهاد عبارة عن رغبات وأماني طائرة يصعب جدا أن تتحول إلى عمل.

ولعل هذا هو السر في بقاء البعض بعيدا عن دائرة الممارسة الفعلية للجهاد رغم "إيمانهم" به وانتسابهم إليه،

إذ يلاحظ أن هناك أعدادا من المسلمين لا تعدم الرغبة في الجهاد، ولكنها في واقع الأمر بعيدة عن الأداء الذي يدخلها في دائرته، لأنها كلما تذكرت الجهاد عزّت نفسها بعدم القدرة عليه، مما يقلب الانتساب إلى مجرد تحسر بارد يتجسد في مجموعة من الآهات الطويلة التي لا قيمة لها في عالم الواقع.

ولذلك ينظر الإسلام إلى التكاسل في امتلاك القوة على أنه دليل على غياب الإرادة الحقيقية للجهاد، حتى وإن وجدت الرغبة!! لأن الإرادة الصادقة هي تلك التي تتحرك في اتجاه صناعة القدرة، من خلال العمل على توظيف وتطوير الإمكانات المتاحة، قال تعالى: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّة} [التوبة: 46]، وهو نص يهدد المتكاسلين في قضية الإعداد بخطر الوقوع في النفاق، رغم ما قد يدّعونه من الإيمان، لأن المسألة أكبر من الادعاءات الكلامية التي تفتقر إلى الأدلة العملية.

ثالثاً؛ فتح أبواب الهداية:

هداية الناس إلى الحق هو جوهر الوظيفة الحضارية للأمة الإسلامية، ووجودها وفاعليتها رهن بهذه الوظيفة، وقديما قال الصحابي: (جئنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله). ومن تم يجب على الأمة أن تولي هذه المهمة المكانة اللائقة، بحيث تضعها على رأس الأهداف المسطرة لحركة التغيير، وأن تعمل باجتهاد على توفير العوامل المساعدة على تحقق الاستجابة لرسالة الدعوة.

وفي هذا السياق يأتي دور امتلاك القوة، كأحد هذه العوامل وأكثرها تأثيرا في حصول غاية الهداية، لأن القوة التي تكون بيد الجماعة المسلمة تشعر المدعوين بإمكانية الحماية من الضغوط والإكراهات التي تمارسها القوى الجاهلية على المستجيبين للدعوة، خاصة عندما نستحضر أن هذه الاستجابة تعني الاستمساك بالعروة الوثقى، وهو ما تعتبره الجاهلية بداية للحرب وإن لم تكن معلنة، قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} [البقرة: 256]، الأمر الذي يفرض أهمية امتلاك القوة كأداة تساعد على فتح أبواب الهداية أمام الشريحة الواسعة من الناس.

ومن المعلوم أن هذا الهدف إنما يتحقق - على الوجه الكامل - في حالة الدولة، لأنها الواقع الذي تتجسد فيه الحماية بشكل واضح، قال تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً} [النصر: 1] وهو ما يزيد من أهمية الحرص على إقامة دولة الإسلام، وينبه على أن الغفلة عن العمل في هذا الاتجاه تعد خيانة لغاية الهداية.

لكن التحقق الكامل للهدف في ظل الدولة لا يعني التقليل من شأن الأثر الذي يحدثه امتلاك القوة في تحقيق غاية الهداية في مرحلة ما قبل الدولة، إذ يكفي في ذلك أنها تحفظ للحق هيبته وتفرض على الجميع احترامه، مما يشجع الناس على الإقبال عليه ويدعوهم إلى الارتباط به، فإذا أضيف إلى هذا ما للقوة من السحر في إحداث الانجذاب نحو من يملكها كان التأثير بإذن الله.

كما أن امتلاك الدعوة للقوة يحدث عند المدعو حالة من التواضع أمام مضمونها (الحق)، وهو ما يسقط عنده ستار الغشاوة التي ينشئها التكبر، والذي غالبا ما يكون من الصفات المصاحبة للملأ، ولعل في قصة سليمان وتجربته الدعوية مع بلقيس ما يشير إلى ذلك، فقد كان استعراضه لمظاهر القوة التي يملكها وسيلة إلى انكسار كبريائها أمام دعوة الحق، وهو ما دفعها - بعد أن تلقت مجموعة من الرسائل الصامتة - إلى أن تقول: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [النمل: 44].

إنه لا غنى لحركة التغيير الإسلامي عن امتلاك القوة، لحماية نفسها أولاً، ولنصرة الدين بالجهاد ثانياً، ولتيسير سبل الهداية للناس ثالثاً، ولعل في هذا ما يدل دلالة قاطعة على أن خط الطائفة المنصورة بما يمثله اليوم من الحق المحاط بالقوة يعد الطريق الذي لا بديل عنه في التمكين للدين.

إلى هنا لم أتكلم عن المقصود بالقوة ولم أحدد عناصرها، لأنني أردت فقط أن أقرر التصور الإسلامي لوظيفة القوة، لنتفق على المبدأ أولاً، أما الباقي فنتركه للمقال المقبل إن شاء الله.

* * *

تعيش الأمة الإسلامية في المرحلة الراهنة حالة ارتباك على مستويات متعددة، منها ما هو فكري ومنها ما هو نفسي ومنها ما هو سلوكي، ولكل واحد من أنواع الارتباك هذه تأثيره السلبي على حاضر الأمة، وعلى مستقبلها كذلك، وكلٌ منها ساهم - ولازال يساهم بشكل أو بآخر - في صناعة الواقع المرّ الذي يعانيه المسلمون في هذه المرحلة. لكنني أعتبر أن أخطرها وأشدها تأثيرا هو الارتباك الفكري، لأنه هو المسؤول عن ضبابية الصورة - أو ربما انقلابها - في وعي الإنسان [انظر "مفاهيم ينبغي أن تصحح" للأستاذ محمد قطب]، مما يؤدي إلى تأسيس الموقف على تصور هلامي تطغى عليه ثقافة الألفاظ المبهمة، وترسم ملامحه أفكار عائمة أخَصُّ ما يميزها أنها تحرص على الابتعاد عن التحديد الدقيق للدلالات التي تحملها المفاهيم المشكّلة لبنية التصور.

خذ مفهوم القوة مثلا، وهو - كما تبين لنا في المقال السابق - من المفاهيم الأساسية في بنية التصور الإسلامي، وتأمل كيف صارت صورة التعامل السائد مع هذا المفهوم مثالا حيا لحالة الارتباك الفكري.

فالبعض - مثلا - يجعل القوة محصورة في معاني القوة الروحية، بما تعنيه من كمال الاستحضار والارتباط بالمعاني الغيبية، ومن تم يصبح إعداد القوة عنده عبارة عن سلسلة لا متناهية من جلسات التربية الصوفية التي تجري وراء "الحال".

وبعض آخر يرى أن القوة الحقيقية هي قوة العقل، ومن تم فإن عملية إعداد القوة معناها تدريب عضلات الدماغ على حل المعضلات الفلسفية، للوصول إلى امتلاك القدرة على إقناع الآخر – العدو -!! وبعض ثالث يختزل المفهوم في الجانب الاقتصادي، ومن تم فإن إعداد القوة يعني عنده الاستغراق في تهيئ إمبراطورية اقتصادية تضاهي أقوى اقتصاد في العالم.

ورابع يضيق واسعا فلا يستحضر من عناصر القوة إلاّ الأداة العسكرية، وخامس وسادس.. إلخ. مما يدل على أننا - في هذا الموضوع - أمام حالة واضحة من الارتباك الفكري، أرى أنها من أكبر العوائق التي تواجه مسيرة العمل الإسلامي في المرحلة الراهنة.

ويرجع هذا الارتباك إلى الابتعاد عن المصدر الصحيح للتلقي – الوحي - وعن المنهج السليم للفهم - منهج أهل السنة - إذ من السهل جدا أن نلاحظ عند كثير من "المفكرين" نوعا من التدخل للأهواء البشرية عند عملية تحديد دلالات المفاهيم، بل إن هذه العملية - في كثير من "الاجتهادات" - لا تعدو أن تكون تقديرات مزاجية تفتقر إلى أبسط المعايير المنهجية، بحيث تكون المسألة خاضعة أولا وأخيراً للأجواء النفسية، أو في أحسن الأحوال للخلفية الفكرية مستمدة بشكل سافر من المنظومة الجاهلية، وحتى إذا جيء بالنص المقدس فسوف يتم استدعاءه فقط ليقوم بدور أسلمة المعرفة، شاء النص أم أبى، حتى وإن أدى هذا التعسف إلى تأويلات بعيدة وآراء شاذة، لأن المهم عند أصحاب هذا التوجه هو عدم الخروج عن الأعراف الدولية.

على أي، لكي نسد الباب أمام الآراء المزاجية نحتاج أولاً إلى الاتفاق على إطار البحث، لأنه يشكل الأرضية التي ننطلق منها نحو تحديد المقصود بالقوة، فمعنى القوة في إطار البحث الفيزيائي شيء، ومعناها في إطار البحث القانوني شيء آخر، ومعناها في إطار البحث الاستراتيجي شيء ثالث.. وهكذا. فما الذي يشكل أرضية البحث في تحديد مفهوم القوة الذي جاء في الآية؟

الجواب يتكفل به السياق {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال:60]، أي أنها القوة التي تمكننا من مجاهدتهم، القوة التي يعَد رباط الخيل صورة لبعض عناصرها، القوة التي تحقق الردع، إنها - باختصار - القوة التي لها علاقة بالموضوع الحرب. من تم فإن إطار البحث لا ينبغي أن يبتعد عن هذا السياق، والحديث النبوي: (ألا إنَّ القوةَ الرمي) [مسلم]، يرسخ هذه الحقيقة بما لا يدع مجالا للأخذ والرد.

وبناء على هذا فإن الكلمة الأولى في بيان معنى القوة تكون للفكر الاستراتيجي، لأنه هو صاحب الشأن في هذا المجال، ونحن مطالبون بأن نسمع للخبراء في هذا الباب.

وإن من الخطأ الفادح ما نراه من كلام البعض في فن الحرب بعقلية فن الدعوة والتربية!! وكم يكون الموقف هزيلاً عندما يأتي "الشيخ" الذي لا علاقة له بالحرب - لا

دراسةً ولا ممارسة - ليتكلم عن مسألة التكافؤ والتوازن... إلخ، وليقرر من خلال هذيانه أن نتيجة المعركة مع أمريكا محسومة، وأن الحكمة تكمن في الاستعاضة عن منطق القوة بقوة المنطق.

وإذا كنا قد بينا فساد هذا النوع من التفكير من خلال تبيين أهمية القوة في المقال السابق، فإن أهم ما نقصده هنا هو تسليط الضوء على هذا المفهوم، وبالضبط قوة الجماعة، في محاولة لتحديد معناه عن طريق إبراز المعالم العامة والعناصر الأساسية التي تشكل حقيقته، دون الدخول في التفاصيل والمفردات الجزئية، لأنها من اختصاص الفكر الاستراتيجي[3].

على أن نتناول هذه المعالجة من خلال تقسيم القوة إلى نوعين اثنين:

أولاً؛ القوة المعنوية:

تتشكل القوة المعنوية من ثلاثة عناصر أساسية:

1) الإرادة العالية:

لأن الإرادة هي التي تشكل قوة الدافع نحو العمل، فتنقل الإنسان من دائرة الجمود والسلبية إلى دائرة الحركة والإيجابية، وتمكنه من توظيف الإمكانيات التي بين يديه، وعندما تكون هذه الإرادة عالية، بحيث تصل إلى مستوى العزيمة، فإنها تقرب المسافة بين الواقع والأمل، وتذلل الصعاب بفعل الإصرار على الوصول إلى الهدف، وكأنها طاقة تنطلق من الداخل لتدفع- دائما - في اتجاه صناعة القدرة، وهذا بالضبط ما يفتح أمام الجماعة آفاق الاستفادة من كامل المعطيات التي يتيحها الواقع، بعيدا عن نفسية الوهن التي تكبل الطاقة وتلاحق الفكر بالحسابات التشاؤمية.

ومن هنا نفهم لماذا أخضع طالوت جنود جماعته للامتحان قبل الدخول في المواجهة، قال تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ} [البقرة:249]، لأنه لأبد "من قوة كامنة في

[3] انظر "معادلات استراتيجية" أبو عبيد القرشي. مجلة الأنصار العدد 17

ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة. هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة. الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلي على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء.. والجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة"[4].

2) البنية المتماسكة:

تماسك البنية التنظيمية معناه صلابة البناء الداخلي للجماعة، وهو ما يعبر عنه القرآن بالصف المرصوص، قال تعالى: {صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف:4]. ويرجع هذا التماسك إلى قوة الارتباط بين العناصر، وإلى دقة التنظيم في تشكيل هيكل البناء، بحيث يأخذ كل عضو موقعه المناسب بصدق وثبات. لأن قوة البناء لا تأتي من قوة كل لبنة على حدة، وإنما تأتي من قوة الارتباط بين هذه اللبنات.

وتستطيع الجماعة من خلال تجسيد متطلبات الولاء الإيماني، وتوطيد معاني الأخوة الإسلامية، أن تقوي شدة هذا التماسك، بحيث تنصهر اللبنات في بعضها، وكأننا أمام لبنة واحدة في النهاية، فتكون هذه الحالة من التجانس والانسجام بمثابة صمام الأمان الذي يحول دون أي تصدع في البناء، ومن تم تسلم الجماعة المشاكل التي تضعف الجبهة الداخلية وتفتح المنافذ للعدو، أو في أقل الأحوال تستنزف الطاقة في الترميم والمعالجة.

لكن تجدر الإشارة إلى أن البنية المتماسكة تحتاج إلى ما هو أكبر من مجرد العواطف الأخوية المطلقة والولاء الإيماني الفضفاض، وإنما لابد مع التفاعل الوجداني من وجود الآليات التي تقلص أسباب الاختلاف، والضوابط التي تنظم العلاقات الداخلية، وتكيفها وفق ما تتطلبه صلابة البنية التنظيمية.

3) الاستراتيجية الجيدة:

الجماعة التي تملك الاستراتيجية الجيدة قادرة على هزم الجيوش الجرارة، وقادرة على إلحاق الضرر بالدول ولو كانت مما يسمى بالقوى العظمى، لأن الاستراتيجية هي التي ترسم الخطوط العامة لخطوات التحرك في

[4] ظلال القرآن

اتجاه الهدف، فإذا كانت هذه الخطوط آخذة بعين الاعتبار القواعد العلمية لكيفية استعمال القوة بشكل فعّال، ولكيفية إبطال مفعول قوة الخصم، فإنها تصبح عنصرا مهما في تشكيل قوة الجماعة المجاهدة. بل قيمة هذا العنصر توازي أضعاف القيمة التي تشكلها مفردات بعض العناصر الأخرى، كعدد القوات ونوعية التسليح مثلا[5].

انظر ماذا تملك أمريكا من القدرات العسكرية.. القوة النووية والصواريخ العابرة للقارات وآخر تكنولوجيا الأسلحة.. إلخ، ثم انظر إلى نتيجة حربها مع تنظيم "القاعدة"، لم تحقق - ولله الحمد - شيئا يذكر إلى الآن، بل جنت ولا زالت تجني خسارة الملايين من الدولارات، والمئات من القتلى، والآلاف من الجرحى، وعداء ما يزيد عن مليار مسلم.. إلخ، وهي تخضع اليوم لعملية استنزاف حادة سوف يؤدي إلى سقوط هيمنتها في القريب العاجل إن شاء الله. كل هذا بفضل نوعية الاستراتيجية التي تتبعها "القاعدة" في إدارة الحرب.

ثانياً؛ القوة المادية:

أما العناصر الأساسية في تشكيل القوة المادية فإنها هي الأخرى ثلاثة:

1) العدد النوعي:

يمثل الأفراد القدرة الحيوية بالنسبة للجماعة، وكلما زاد العدد زادت هذه القدرة، مما يساهم في تنامي قوة الجماعة، ويتيح لها مساحات أوسع للفعل، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال:62]، وهي إشارة واضحة إلى تأثير العنصر البشري في نتيجة الصراع، وإلى قيمة هذا التأثير التي جعلتها الآية تلي قيمة التأييد الرباني.

بل إن الفكر الاستراتيجي الإسلامي ليستحضر - بشكل دقيق - الجانب العددي في الأفراد، فهذا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُ مِائَةٍ وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلافٍ وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ) [أبو داوود]. بل وأكثر من ذلك، يأتي القرآن ليزيد على مسألة العدد مسألةَ النوعية {إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ

---

[5] انظر "معادلات استراتيجية" أبو عبيد القرشي، مجلة الأنصار العدد 17

عِشْرُونَ صَابِرُون} [الأنفال:65]، وهو ما يعني رعايةَ الرقم باعتبار مواصفات معينة، أي العدد النوعي.

2) الأداة العسكرية:

طبعا هذا هو العنصر المتبادر من مفهوم القوة، ولهذا التبادر ما يبرره، إذ أن عطف الخاص على العام يفيد مزيد التأكيد والاهتمام، كما هو مقرر في الأصول، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ}، فرباط الخيل جزء من القوة، وقد عُطف عليها، فيما يبدو أنه إشارة واضحة إلى ضرورة المزيد من الاعتناء بالجانب العسكري، الذي يمثله في الآية رباط الخيل، باعتباره صورة لتجليات المفهوم في إطار زماني ومكاني معين.

ولهذا لا يجوز أن ننزلق وراء بعض النظريات الحديثة التي تدعو إلى السير في اتجاه التخلص من القوة العسكرية، إما بحجة فاعلية القوانين الدولية، أو استنادا إلى خرافة السلام العالمي... فإن الظلم مازال مخيما، والأطماع لازالت تحرك الأعداء، والصراع سيظل قائما.. وما عليك إلاّ أن تتأمل أنماط الحروب القائمة لتدرك أن القوة العسكرية مازالت تؤكد وجودها بشكل متميز، إما بوصفها أداة مباشرة لحسم الصراع أو بوصفها أداة للردع الذي يكبت الاعتداء.

3) التدفق المالي:

فالمال هو عصب الحرب كما يقال، والمجهود الحربي إذا لم يكن مسانداً بتدفق مالي مستمر فإنه إلى الأفول ولاشك، ولعل الربط الذي أقامته آية الموضوع بين الأمر بإعداد القوة والدعوة إلى إنفاق المال يعد واحدا من الإشارات القوية في هذا السياق، {وَمَا تنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُم} [الأنفال:60]، ناهيك عن الآيات الكثيرة التي تدعو مباشرة إلى الجهاد بالمال. مما يجعل العنصر الاقتصادي حاضرا في المعنى الذي يحمله مفهوم القوة.

الذي يتبين بعد هذه المعالجة السريعة أن مفهوم القوة في التصور الإسلامي مفهوم واضح، بل وقابل للتحديد والحساب، وأنه مبني على الجمع المتوازن بين العناصر المادية والمعنوية، وعلى ديناميكية هذه العناصر، بحيث تتجاوب مع المتغيرات وتستجيب لمتطلبات كل مرحلة بما يناسبها. ولذلك لا أجد تفسيراً للارتباك الحاصل عند البعض بخصوص هذا المفهوم إلاّ أن أقول؛ إنه البعد عن كتاب الله.

عن مجلة الانصار

منبر التوحيد والجهاد
sw.dehwat.www
sw.esedqamla.www
ofni.hannusla.www
moc.adataq-uba.www